الفيل

ذلك المجهول

من الجائز أن الفيلة لا ترى الفئران رؤية صحيحة ؛ لأن بصرها ضعيف . فعندما يلتقط الفيل جوزة صغيرة أو حبة من الفول السوداني ، فلا يدل ذلك على أنه يراها. ذلك بأن خرطوم الفيل هو في تكوينه الحيوي ، بمثابة جهاز « رادار » الحديث ، فبتقل اليه ما هو جار على بعد منه ، بأدق ما تنقل العينان أو الاذنان .

لاشك في أن الطبيعة ، أمنا العظمى ، عندما أرادت تصوير الفيل ، قد افتتنت وتريثت طويلاً ، لتبرز في عالم الحياة حيواناً لا نظير له في الخليقة . وإلاّ فأين نظيره ؟ أين الحيوان الذي تنمو ثنایاه حتى تصير من الثقل بحيث ترهقه بحملها إذا مشى ؟ أين الحيوان الذي زوّدته الطبيعة بجلد سمكه بوصة ، وجهاز لتوزيع الحرارة ضعيف الأثر ، فلا يحتمل الجليد إلاّ بقدر ما تحتمله نبتة ضعيفة من نبات الفول الغض ؟ أين الحيوان الذي اندمجت أنفه في شفته العليا ثم امتدتا إلى الامام فأصبحتا ذلك العضو الغريب الذي ندعوه الخرطوم، فيقوم مقام الاصبع واليد والأنف والنافورة والهراوة .

ان أقدم أسلاف الفيلة قد انقرضوا من الأرض منذ ٢٠٫٠٠٠ سنة على الأقل ، في حين أن الفيل ، وهو البقية الباقية من عالم بائد ، قد عاش إلى الآن ، لتضفي به الطبيعة علينا آية من حيوان هو أبعد ضروب الحيوان عن أفهامنا . حيوان ورثنا بوجوده عن آبائنا قصصاً وخرافات ، وعن علمائنا أقوالاً متناقضة متضاربة .

ولعلك قد سمعت بعض ما يروى عن الفيل . ألم تسمع أن الفيل يبدأ في التوالد إذا بلغ المائة أو يزيد ، وانه لا ينسى إساءة ، وانه لا بدّ من أن يردها انتقاماً ؟ وان الفيلة الافريقية غير قابلة للاستئناف ، فلا يستطيع الانسان أن يعالجها ، وان الطوّال منهم تزعجهم الفئران ؟ وأنّ قائد القطيع لا بدّ من أن يكون خلاً هائل الحجم ضخم الجثة ، له ماض في المعارك تركت أثرها في إهابه ، فتظل له السيادة حتى يتغلب عليه « جالوت » صغير يتربع على عرش القطيع ، وأن الفيل إذا توقع الموت تسلّل لبيوت خفية وفي سلام ، ولكن في مقبرة لا يعرفها إلاّ الفيلة ؟ .

ليس من هذا كله شيء حقيقي ، ولو أنك وقفت تنظر إلى فيل من غير أن تعرف أي شيء عنه ، لاستعصى عليك أن تعتقد شيئاً من صحة ذلك . ولننظر الآن فيما يقال عن عمره . ولنقف عند هذا برهة قصيرة .

***

إن لأهل « بورما » قولة في الفيل وانه يولد عجوزاً طاعناً في السن . ولهم في ذلك حق . فان ولو الفيل يلوح كأنه عجوز فان ، يجلده المجعّد وحركاته الثقيلة وترنحه رنح المعجّزين ، وفيل في الاربعين يلوح لك كأنه في عمر نوح . فاهيك بإهابه المتنفخ الأغبر الأملط المشرّه بألاف التجاعيد ، وجبهته العريضة البارزة التي تعبر لك عن أنها خزانة حكمة وتجربة ، وعينيه الصغيرتين الغائرتين ، جماع ذلك يكمل ، عند أول نظرة اليه ، صورة حيوان عاش من القدم المديد إلى عمرك الحاضر . هذه الأشياء إيحاء لا غير ، تبعثه فيك صورته الظاهرة .

ويبلغ الفيل تمام نموّه في العشرين من عمره ، وأقل من ذلك شيئاً مّا . وتلد أنثى الفيل وهي في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من سنيها ، وتظهر على الفيلة سمات الكبر وهي في الاربعين . وأقصى عمر تبلغه الخامسة بعد السبعين غالباً .

ثم ماذا عن حقد الفيل وانه لا ينسى الاساءة ! قد يكون لذلك الجلس ذاكرة غاية في القوة . ولكن إذا صحّ أن الفيل لا يصفح عن أذية ، إذن لتعذر أن يوجد فيل واحد في ملعب من الملاعب ، أو حظيرة من حظائر حدائق الحيوان . وكل الحقائق المعروفة تدل على أن الفيل يحترم السلطة ويخضع لها . وقد يصرع حارسه إذا شاء ، ولكنه يحني له الرأس احتراماً إذا اضطرّ .

والذكور أخلاق تند عن أخلاق الاناث من حيث الالفة والخضوع ، ومزاجها أخفّ وأضمن . وهذا هو السبب في أن العادة اتبعت في ملاعب الحيوان أن يكون قطيع الفيلة فيها من الاناث ، ولو انهُ يجري على ألسنة أصحابها كلة « الفحول » إشارة الى الفيلة من غير اعتبار لجنسها . والواقع أن ذكور الفيلة إذا طال بها الأمر ساءت أخلاقها واستعصت ، فتعييها القتل بالرصاص ، طال بها العهد أم قصر .

ان « ضمبو » ، وهو فيل ذكر عظيم دوّخه « بارنوم » ، معروف لكل أمريكي ولد قبل سنة ١٨٩٠ . وهو ولاشك أعظم فيل عاش في أسر الانسان . وكان « ضمبو » افريقيًّا ،

وهو نوع عرف عنهُ أنهُ من أبعد الحيوان عن قبول الإيلاف . ولكن آلافاً من الأطفال وكبروا ظهره ، فناقض بذلك خرافة شاعت عن الفيلة الافريقية .

ثم كيف القول في أن الفيل يرهب الفأر ، وان له مقابر يلجأ اليها ليموت إذا حان حينه وان أكبر الفحول يقود القطيع ؟

***

يقول حرّاس حديقة الحيوان في فلادلفيا ، أن فيلة الحديقة لا تأبه بالفئران ولا تميزها أي النفات . ولا شك في أن ذلك الخلق هو خلقها في الغابة . ومن الجائز أن الفيلة لا ترى الفئران رؤية صحيحة ، لأن بصرها ضعيف . فعندما يلتقط الفيل جوزة صغيرة أو حبة من الفول السوداني ، فلا يدل ذلك على أنه يراها . ذلك بأن خرطوم الفيل ، هو في تكوينه الحيوي بمثابة جهاز « رادار » الحديث فينقل اليه ما هو جار على بعد منه ، بأدق ما تنقل العينان أو الأذنان .

كذلك لا يقود الفحل الأكبر القطيع كما يقال . ولكن الرأي في ذلك غير متفق . بيد أن الشائع أن إحدى الاناث تكون غالباً على رأس القطيع . ويقول أحد صيادي الفيلة أن جماعتها تخضع لنظام الأمومة ، وهو نظام يكون السلطان والرياسة فيه للام ، وأنه إذا حدث ووجد فيل عظيم الناب في جماعة من الاناث ، فيغلب أن يتعذر عليك قتله ، لا لسبب إلا لحصانة الوحشية التي يوجهها اليك الاناث دفاعاً عنه .

***

وقطعان الفيلة مسالمة فيما بينها وديعة في تصرفها . والظاهر أن ما يحدث بينها من التخاصم قليل ، ولا يند عن هذه القاعدة غير فئة قليلة من الذكور يبدو القطيع لسوء أخلاقها ، فتهيم على وجهها زماناً ، تعرض فيما خلاله ، ميول غير مرغوب فيها ، فتظل طريدة .

أما مدافن الفيلة ، فالظاهر أن لا وجود لها . وبالرغم من أن الكثيرين بحثوا وراءها وفتشوا عنها ، وغية في الحصول على عاجها ، فانه لم يعثر على أثر لها . وبالرغم من أن أكثر ما ينقل عن طبائع الفيلة غير صحيح ، فهنالك من حقائق حياتها العجيبة الشاذة ، ما يظهر ان هذا الحيوان من أغرب الكائنات في دنيا الحياة . فالفيل ولو أنه ذائع في بقاع فسيحة شاسعة من رقاع إفريقية وآسيا ، ولا يتنوع عن المشي خمسين ميلاً ليسعد بشربة ماء ، فانه عاجز عن الجري والركض والتقريب ، ولا يستطيع الوثب ، ومشيه عبارة عن سير سريع

لا يزيد معدله عن عشرين ميلاً في الساعة ؛ ولكنه لا يقدر على ذلك غير قليل من الزمن . فاذا هاجم ، فان انصياد قلما يسبقه عدواً

***

والفيل سباح ماهر ، ويحب الغوص تحت الماء بكل جسمه ما عدا طرف خرطومه الذي يظل ظاهراً فوق السطح ، كأنه مثناق[1] غواصة . ولا يضارعه شيء من الحيوان في القدرة على الثقافة ، والتعلم في أخريات عمره . وقد يزن ناباه مائتي أو ثلاثمائة رطل . وهما ثقيلان بتعبانه ويضنيانه . وللفحل الكبير من الفيلة نابان من هذا الوزن الثقيل . وكثيراً ما يعمد الفحول الكبيرة إلى شجرة يسندون اليها أنيابهم ليريحوا عضلات رقابهم من حملها بعض الوقت .

ولا يعضد مثل هذه الأنياب غير جمجمة عظيمة الحجم . وجمجمة الفيل شيء يدعو إلى العجب . ففي مؤخر الطبقة العظمية الأمامية التي تؤلف الجبهة ، مساحات منفرجة قليلاً أو كثيراً ، مملوءة بعظام أشبه بأقراص خلية النحل . ومن المتعذر أن تقتل فيلاً باصابة دماغه (مخه) . فان الاهتداء اليه عسير ، ذلك بأنه مندفن في داخل الجمجمة على بعد اثنتي عشرة بوصة أو يزيد .

وأسنان الفيل الفكية شيء غير عادي في دنيا الحيوان . فهي على كبرها لا تستقر في وقوب شأن بقية الحيوان ، وإنما تنتظم في خندق غائر في عظم الفك ، تتزلق فيه حسب الحاجة . ولا يظهر من أسنانه غير سن واحدة أو سن ونصف في كل من فكيه ، فاذا تحاتت سن منها ، سقطت وحلت محلها السن التي تليها . ولكن أغرب ما في الفيل خرطومه ، وهو عبارة عن أنبوبة من العضلات ، أو قل مئات من العضلات ، وينقسم عند منتصفه بفاصل ، وفي طرفه الأمامي بروزان يستعملها الفيل كما نستعمل أصابعنا .

والفيلة تعبر عن الصداقة بتشابك الأنياب كما نعبر نحن عن ذلك بمز اليد . وتربت الأنثى صغيرها بنابها ، فاذا مشى وضعته فوق ظهره لتدله به على الطريق . ورب ما كان أعظم فائدة لخرطوم الفيل أنه عضو حس . فاذا نامت الفيلة مدّت خراطيمها لتشم الهواء ، عساها تقع بالشم على عدو قريب منها .

---

(١) Periscope